من طه الى هيكل (١)

أخي العزيز :

قرات كتابك الممتع الذى تنشره الرساله اليوم وستنشره السياسة بعد غد وسيقرؤه الناس مرتين ، فأذن لى فى ان اشكر لك هذا الكتاب اجمل الشكر لأنه راقنى حقاً ، وأثار في نفسى من حبك ، والاعجاب الشديد ببراعتك ولباقتك ، ماتثيره آثارك الأدبية كلها فى نفسى حين أقرؤها ، وأأذن لى فى أن أعود فأثني عليك لأني لن أتعب من الثناء عليك ، ولن يعنيني أن أدهشك أو أخجلك ، انى لم اتعود قط ان احفل بدهشك أو خجلك ، وانما تعودت أن اقول الحق سواء على أأرضاك حتى انتهى بك الى الخجل ، أم أسخطك حتى انتهى بك إلى الثورة ، أو إلى غضب هادىء فيه مكر ، هو أشد من الثورة وأحد . فاخجل ياصديقى ما وسعك الخجل ، وادهش ياصديقى ماوسعك الدهش ، واغضب ياصديقى ما استطعت احتمال الغضب ، فانت كاتب بارع ، وأديب فذ كثير الانتاج كأنك الجني ، قد أخذت تحب الاعلان بعض الشيء فى هذه الايام حتى انك لتنشر ردك على مرتين . وفيك اسراع الى الحكم وفتور عن البحث ورغبة عن الاستقصاء تضطرك احيانا الى الخطا وتصرفك احيانا عن الحق . وفى اسلوبك الرائع البارع وبيانك الفائق الرائق شيء من الضعف يقربه احيانا من الابتذال . ويخيل الى أيها الصديق العزيز ان هذه الملاحظة وحدها هى التى آلمك بين الملاحظات الاخري التي اخذت بها كتابك ثورة الادب ، فأذن لى فى أن أصر عليها والح فيها . وأذن لى فى ان أصر ايضا على كل رأى فيك لا اغير منه حرفاً ولا انقص منه شيئا . فانت تجيد حتى تصل الي الابداع ، وتضعف حتى تشرف على الابتذال . ولك ان تلومني ما شئت لأنى لم اهدك الى مواضع الضعف فى اسلوبك فقد يئست من هدايتك لانك كما تقول تحب لاسلوبك كما هو ، مشغوف به على علاته ، لاتريد ان تغيره ولا أن تصلح مواضع النقص فيه ، وكل ما اخشاه ايها الصديق أنما هو ان تتهمنى بالاسراف عليك والغلو فى نقدك ، وقد كنت هممت أن اضرب الامثال من ثورة الادب لضعف اسلوبك فيه احيانا ، ولكنى

« البقية على صفحة ٤٢ »

(١) رد على كتاب الدكتور هيكل المنشور فى هذا العدد صفحة ٣٨

الى الاستاذ توفيق الحكيم

من الدكتور طه حسين

سيدى الاستاذ

لست أدرى أيعنينى حقاً ويعنى أصحابى ، ان نعرف رأى الجيل الجديد فى جهدنا الأدبى وما أحدثنا من اثر فى حياتنا الأدبية الجديدة . لأن العلم الصحيح برأى المعاصرين لاسبيل اليه ، أو لاتكاد توجد السبيل التى توصل اليه . أو قل ان هذا الجيل الجديد نفسه قد يشق عليه جداً ان يصور لنفسه فينا رأياً صحيحا مستقيما بريئاً من هذه العواطف الحادة الجامحة التى تسيطر على نفوس الشباب ، وتؤثر أشد التأثير فيما يكونون لأنفسهم من آراء فى الكتاب والشعراء المعاصرين . فهم بين معجب يدفعه الاعجاب الى الاغراق فى الثناء ، وبين ساخط يدفعه السخط الى الاغراق فى الذم . وأكاد اعتقد أن ليس من اليسير لكاتب او شاعر أن يعرف رأي الناس فيه حقاً ، لأن هذا الرأي لايظهر واضحاً جلياً بريئاً من تأثير العواطف والأهواء والظروف ، إلا حين يصبح الكاتب أو الشاعر وديعة فى ذمة التاريخ . ومع ذلك فانا أشكر لك اجمل الشكر رأيك فى أصحابى وفي ، وثناءك على اصحابى وعلىّ ويسرهم كما يسرني ان يكون رأيك فينا صحيحاً ، وأن يكون ثناؤك علينا خالصاً من الاسراف فى الحب الذى يدعو الى الاسراف فى التقدير .

لقد قرأت كتابك الممتع فترك فى نفسى آثاراً مختلفة ، ولكن أظهرها الاعجاب بهذا التفكير المستقيم العميق ، وهذا الاطلاع الواسع الغنى ، وهذا الاتجاه الخصب الى تعرف الروح الأدبى لمصر فى حياتها الماضية والحاضرة والمستقبلة . وقد دفعنى إعجابي بكتابك القيم الى ألا اختص به نفسى فآثرت به قراء الرسالة وأذعته فيهم . وأنا واثق بأنهم قد رأوا فيه مثل ما رأيت وحمدوا منه مثل ماحمدت ، وأثنوا عليك بمثل ما أثنيت ، وهموا أن يناقشوا بعض ماجاء فيه من الآراء كما اريد أنا الآن ان اناقشها .

ولست أدرى أيقف امر كتابك هذا عند اذاعته فى الرسالة وردى عليه ، أو يتجاوزهما الى مناقشة طويلة عريضة يشترك فيها كتاب مختلفون ونقاد كثيرون . فكتابك خليق بهذه المناقشة لأن أسلوب التفكير فيه جديد قيم ، ومهما أفعل فلن استطيع ان أتناول كل ما أشعر بالحاجة الى تناوله بالنقد والتمحيص

من آرائك الكثيرة المتباينة التي أفعمت بها كتابك افعاماً . ولكني أقف عند طائفة قليلة من هذه الآراء ، لا أستطيع ان أدعها تمضي من غير نقد ولا تعليق .

وأول ما أقف عنده من هذه الآراء رأيك فيما تسميه شؤون الفكر في مصر، قبل الجيل الذي نشأ نافيه ، فقد ترى ان هذه الشؤون كانت كلها محاكاة وتقليداً وتأثراً للعرب ، واحتذاء خالصاً لمثلهم الأدبية ، حتى جاء الاستاذ لطفي السيد ففتح لنا طريق الاستقلال الأدبي . وفي رأيك هذا شيء من الحق ، لكن فيه شيئاً من الاسراف غير قليل ، فلست أعتقد ان الشخصية المصرية محيت من الأدب المصري محواً تاماً في يوم من الأيام ، ولست أعتقد أن كلمة أنا لم يكن لها مدلول في لغة المصريين ، ولست أعتقد ان المصريين كانوا في شبه اغماء حتى أقبل هذا الجيل الذي تتحدث عنه ، فرد عليهم الحياة والنشاط . كل ما يمكن أن يصح لك هو ان الشخصية المصرية في الأدب كانت ذاوية ذابلة الى حد بعيد في وقت من الأوقات لعله يبتدىء بآخر عصر المماليك . ولكن هذه الشخصية على ذبولها وفتورها لم تمت ولم تمح ، بل ظلت حية تتردد أشعتها الضئيلة في آثار الكتاب والشعراء والعلماء ، الى أن كان العصر الحديث . ويكفي ان تقرأ الأدب المصري في ايام المماليك وقبل أيام المماليك ، لتعلم أن شخصيتنا الأدبية كانت قوية منتجة ، وكانت جذابة خلابة في كل فرع من فروع حياتنا المعنوية . كانت في الشعر بنوع خاص أقوى منها في هذه الأيام ، واقرأ ديوان البهاء زهير فستجد صورتك فيه واضحة ، وستجد نفسك فيه ظاهرة ، وستجد عواطفك فيه ممثلة ، وستجد هذا كله أشد جلاء وقوة عند هذا الشاعر القديم منه عند شعرائنا المعاصرين . والأمر ليس مقصوراً على هذا الشاعر ، بل هو شائع في شعرائنا جميعاً قبل فتح الترك لمصر . وهو كذلك شائع في كتابنا وعلمائنا ، ولو قد كانت شخصيتنا ضعيفة فانية وفاترة واهية ، لما اتيح لنا ان نؤدي الحضارة الاسلامية ونحفظها من الضياع حين اخذ التتار والأوربيون عليها اقطار الشرق والغرب . ولم تكن هذه الشخصية في عصور الضعف والوهن خفية ولا غامضة ، فأنت تجدها واضحة في شعر هؤلاء الشعراء المتأخرين الذين عاشوا في اول القرن الماضي وفي أثنائه ، والذين لانحب شعرهم ولا نطيل النظر فيه ، والذين يخيل الينا انهم كانوا يقلدون فيسرفون في التقليد ، ولكنهم برغم هذا التقليد الشديد لم يستطيعوا أن يمحوا مصريتهم ولا ان يخفوها . ولست أستطيع ان اضرب لك الأمثال هنا فذلك شيء لاينتهي ، ولكني أؤكد لك ان حكمك على هذه الشخصية المصرية في الأدب محتاج الى التصحيح ، وأنت قادر على هذا التصحيح ، ان قرأت أدبنا المصري كما تقرأ الأدب الغربي وكما تقرأ الادب العربي القديم ، ستجد فيه تقليداً ، وستجد فيه بديعاً كثيراً ، ولكنك ستجد فيه نزعة مصرية واضحة تحسها حيثما ذهبت ، وأينما وجهت من ارض مصر ، وتجدها عند المصريين المعاصرين الذين لم تخرجهم الثقافة الأوربية عن اطوارهم المألوفة ، في الشعور والتفكير وفي النظر الى الحياة والتأثر بها والحكم عليها .

هذه النزعة صوفية بعض الشيء ، فيها مزاج معتدل من الاذعان للقضاء والابتسام للحوادث ، وفيها مزاج معتدل من حزن ليس شديد الظلمة ، ولا مسرفا في العمق ، ومن سخرية ليست عنيفة ولا شديدة اللذع ولكنها على ذلك بالغة مقنعة ، تمض في كثير من الأحيان ، ولعلك تجد هذه النزعة نفسها قريباً جداً منك . لعلك تجدها في اهل الكهف . فجيلنا اذن لم يحدث شخصية مصرية لم تكن ، وانما جلا هذه الشخصية وأزال عنها الحجب والأستار ، وجيلنا لم يمنحها الحياة ، وانما منحها النشاط ، وزاد حظها من الاستقلال وغير وجهتها ، فلفتها الى الأمام بعد ان كانت تصر على الالتفات الى وراء ، وليس هذا بالشيء القليل .

وأنا معجب بآرائك في الفن المصري ، وفي الفن الأغريقي ، ولكني لا أحب لك هذا الاسراع إلى استخلاص الأحكام العامة ، واقامة القواعد التي لا تثبت للنقد والتمحيص . وآية ذلك أنك أنت نفسك قد أحسست بعض هذا الاسراع فاصلحته حين قضيت على اليونان في أول الكتاب ثم قضيت لهم في آخره . وسترى أنك أسرعت في الأولى وأسرعت في الثانية ، وكنت خليقا أن تصطنع الاناة فيهما جميعا . فليس من الحق أن اليونان كانوا أصحاب مادة ليس غير ، وليس من الحق أن روحية اليونان هذه التي أنكرتها في أول الكتاب ، وعرفتها في آخره قد جاءتهم من الاهيم ديونيزوس وحده . فحظ اليونان من الروحية قديم تجده بينا في شعرهم القصصي في الالياذة والاودسا قبل أن تظهر فيهم الآثار العنيفة لدين ديونيزوس ، وأنت تعلم أن ظهور هذا الاله عند اليونان متأخر العصر ، وأنه في أكبر الظن إله أجنبي جاءهم من تراقيا ، وأنه لم يعطهم هذه الحياة الروحية العليا ، التي نجدها عند سقراط وعند تلاميذه ، وعند افلاطون بنوع خاص ، وإنما أعطاهم حياة روحية أخرى كلها تصوف وكلها طموح إلى عالم مجهول مختلط تحيط به الأسرار والالغاز ، وتعبر عنه الرموز والكنايات .

وكان هذا النوع من الروحية ذا مظهرين مختلفين ، أحدهما شائع مشترك ، يساهم فيه الشعب كله ، وأهل الريف منهم خاصة ، والآخر مقصور على طائفة معينة ، هي هذه التي تتعلم الأسرار وتشترك في إقامتها واحيائها . فكان دين ديونيزوس أشبه شيء بطرق الصوفية عندنا ، علمها الصحيح مقصور على خاصة المتصوفة ، ونشاطها العملي الغليظ شائع في أفراد الشعب جميعاً . وقد كان أثر ديونيزوس في الأدب اليوناني قوياً عميقاً ، وحسبك إنه إله التمثيل ، ولكن روحية اليونان الخصبة حقا ، الممتازة حقا ، التي أزعم معتذرا اليك أنك لا تستطيع أن تجد لها شبيها ولا مقاربا في مصر الروحية . هذه الروحية اليونانية تجدها واضحة جلية ، عذبة ساحرة عند فلاسفة اليونان من تلاميذ سقراط ، وعند افلاطون بنوع خاص . ستقول كما قال كثيرون من قبل : إن أفلاطون قدزار مصر ، وأخذ منها ولست أنكر روحية مصر ، ولكني لا أعرف عنها شيئاً كثيراً ، ولعلي مدين لليونان بما أعرفه من الروحية المصرية . ومهما يكن من شيء فأنت توافقني على أن اليونان لم يكونوا أصحاب مادة فحسب ، ولم تأتهم روحيتهم من ديونيزوس وحده ، وانما اليونان مزاج معتدل من المادة والروح . هم الذين يحققون مثلك الأعلى من المزاوجة بين المادة والروح ، والملاءمة بين الحركة والسكون ، وبين القلق والاضطراب ، ولذلك كان اليونان هم الذين أخرجوا للانسانية في العصر القديم أرقى تراث في الأدب والفن والفلسفة.

قلت إني لا أنكر روحية المصريين . وأقول أيضا إني مؤمن بروحية الهنود ، ومعترف بتأثير الروحية المصرية والهندية في حياة اليونان . ولكني لا أعرف من روحية المصريين شيئاً كثيراً لأننا لا نعرف للمصريين فناً ناطقاً ، لا نعرف لهم أدباً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وأنت ترى معي أن الأدب هو أوضح مصور لحياة العقول والقلوب ، لأنه يحقق مقدارا مشتركا يمكن الاتفاق عليه ، ويصعب الاختلاف فيه . فنحن إذا قرأنا الشعر أو النثر معا ، فهمنا فهما واحدا أو فهمين متقاربين ، ولكن الفن الصامت فن البحث والتصوير وما اليهما يثير في نفوس الناس معاني مهما تكن متقاربة متشابهة ، فهي تختلف باختلاف الاشخاص والبيئات والعصور ، هاأنت ذا تفهم من الفن المصري ما تفهم ، ويشاركك فيه كثير من المثقفين ثقافة أوربية ، ولكن أواثق أنت حقاً بأن قدماء المصريين كانوا يرون تماثيلهم وعماراتهم كما تراها ، ويفهمونها كما تفهمها ، ويستلهمونها كما تستلهمها ؟ أرأيتك لو سألت مصريا معاصرا لرمسيس عن رأيه في تمثال من التماثيل ، أو عمارة من العمارات ، أيقول فيهما مثل ما تقول ؟ ومثل هذا يقال في الفن اليوناني ، وفي كل هذه الفنون الصامتة ، فليس من الخير أن نعتمد عليها وحدها في تشخيص عقلية الأمم وروحيتها ، انما المشخص الصحيح للعقول والقلوب والأرواح هو الكلام ، والكلام الجميل الذي نسميه الأدب ونقسمه شعرا ونثرا . فالى أن يكشف لنا علماء الآثار المصرية عن أدب مصري قديم خليق بهذا الاسم أرجو أن تأذن لي في أن أشك في كثير جدا من هذه الأحكام التي يرسلها الأدباء والشعراء وأصحاب الفن على عقلية المصريين القدماء وروحيتهم ، وبعدهم عن المادة ، وقربهم من الروح .

كل هذه عندي أحكام يتعجل بها اصحابها ، ويرسلونها على غير تحقيق ، واذا فقد يكون من الاسراف أن نتخذ هذه الروحية المصرية الغامضة التي يسرع اليها الشك ، والتي تعجز عن أن تثبت للبحث ، والتي توشك أن تكون خيالا تخيلته أنت وتخيله أصحابك من الأدباء ورجال الفن أساسا لأدبنا المصري الحديث . فمن يدري لعل البحث عن آثار مصر ان يكشف لنا بعد زمن طويل أو قصير عن حياة مصرية قديمة تغاير كل المغايرة هذا الخيال الذي تحبونه وتطمئنون اليه ، ويخيل اليكم ان الفن المصري القديم يوحيه ويمليه وينطق به .

نحن إذا أمام أمرين : احدهما عرضة للشك الشديد ، لانكاد نعرف منه شيئا ، والآخر لا سبيل إلى الشك فيه ؛ احدهما حياة مصر القديمة وحضارتها العقلية - ان صح هذا التعبير - والآخر حياة العرب وحضارتهم . فالى أي الأمرين نفزع لنقيم عليه بناء أدبنا الجديد ؟ الى الشك ام إلى اليقين ؟ وهنا يظهر الخلاف بينك وبيني شديدا حقا ، فقد اصلحت انت رأيك في اليونان ، ولا أستطيع مناقشتك في احكامك على المصريين لأنها أثر الالهام الفني ، ولكن رأيك في العرب وآثارهم في حاجة شديدة جداً الى التقويم . فقد كنا نرى ان ابن خلدون جار على العرب فاذا أنت أشد منه جوراً وأقل منه عذراً . فقد يسر الله لك من أسباب العلم بالتاريخ القديم ، وتاريخ القرون الوسطى وتاريخ الحياة الأدبية والفنية والعقلية لمختلف الأمم والشعوب مالم ييسره لابن خلدون . فاذا قبل من هذا المؤرخ الفيلسوف ان يتورط في الخطأ لأن عقله الواسع لم يحط من امور اليونان والرومان والهند والفرس والمصريين القدماء بما نستطيع نحن الآن أن نحيط به او نمعن فيه ، فليس يقبل منك انت هذا الخطأ وليس يقبل من المعاصرين بوجه عام . وقد ذهب الى مثل ماذهبت اليه جماعة من المستشرقين منهم دوزي ورينان ، وأحسبكم جميعاً تظلمون العرب ظلماً شديداً وتقضون في أمرهم بغير الحق .

فلو أنكم ذهبتم تقارنون بين العرب وبين الهنود والفرس ، والمصريين القدماء لما كان من حقكم ان تقدموا هذه الأمم فى الأدب على الامة العربية بحال من الاحوال ، لاننا لانكاد نعرف من آداب هذه الامم فى تاريخها القديم شيئا يقاس الى ما بين ايدينا من الادب العربى . فالى ان يستكشف ادب هذه الامم ان كان لها ادب اكثر من هذا الذى نعرفه ، يجب ان نؤمن للعرب بالتفوق عليها فى الشعر والنثر جميعا . للمصريين قصصهم ، وللهنود قصصهم وفلسفتهم ، ولكن للعرب شعرهم ونثرهم ودينهم ، ولهم قصصهم أيضا . فاذا اردت ان تقارن بين العرب والرومان فأظنك توافقنى على ان الادب العربى الخالص ارقى جدا من الادب الرومانى الخالص ، اى ان الأدب الرومانى انما أرتقى حقا حين اثر فيه الادب اليونانى ، فالرومان تلاميذ اليونان فى الادب والفن والفلسفة ، والعرب يشبهونهم فى ذلك . ولكن العرب كان لهم ادب ممتاز قبل ان يتأثروا بالحضارة اليونانية ، ولم يكن للرومان من هذا الادب الرومانى الممتاز الخالص حظ يذكر . وقد تفوق الرومان فى الفقه ، ولكنهم لم يسبقوا العرب فى هذه الناحية من نواحى الانتاج ، ولعل الامة الوحيدة التى يمكن أن تشبه بالرومان فى الفقه انما هى الامة العربية . لم يبق اذا الا ادب اليونان ، هو الذى يمكن ان يقال فيه انه متفوق على الادب العربى حقا ، ولكن من الذى يقيس رقى الادب فى امة من الامم برقى الادب فى امة اخرى ؟ فاذا كانت ظروف الحياة العربية مخالفة اشد المخالفة لظروف الحياة اليونانية ، فطبيعى ان تختلف الآداب عند الامتين . وليس من شك فى ان الادب العربي قد صور حياة العرب تصويرا صادقا فأدى واجبه احسن الاداء ، وكل ما يؤخذ به الادب العربي القديم هو انه لا يصور حياتنا نحن الآن ، ولكن اواثق انت بان الادب اليونانى القديم قادر علي ان يصور الحياة الحديثة تصويرا يرضى أهلها ؟ ! أما انا فلا اتردد فى الجواب على مثل هذا السؤال ، فالأدب اليونانى القديم خصب غنى ممتع من غير شك ، ولكنه كالادب العربي قد صور حياة القدماء ، وهو قادر على ان يلهم المحدثين لا اكثر ولا اقل

وأراك تذكر الفن العربي فتعيبه وتغض منه ، وقد تكون موفقا فى ذلك ، ولكن أليس من الظلم ان تحمل هذا الفن على العرب ، وانما هو فن اسلامى ساهمت فيه الامم الاسلامية المختلفة واستمدت اكثره من البيزنطيين . فاذا كان لك ان تعيب هذا الفن او تحمده ، فأحب ان تقتصد فى اضافته الى العرب ، والخير ان تضيفه الى الامم الاسلامية . وامر العرب بالقياس الى الفن والادب والعلم والفلسفة بعد العصر العباسى الاول ، كأمر اليونان بالقياس الى هذه الأشياء كلها بعد غارة الاسكندر على الشرق . كانوا ملهمين باعثين للنشاط ، دافعين الى الانتاج ، مقدمين لغتهم وعاء لما تنتجه العقول والملكات على اختلافها ، وقد يكون من الحق ان كل مقامة من مقامات الحريرى اشبه بباب من ابواب جامع المؤيد ، ولكن من الحق ايضا ان الآثار الادبية التى تشبه مقامات الحريرى ، والآثار الفنية التى تشبه ابواب جامع المؤيد كثيرة جدا عند اليونان فى العصر المتأخر ، وعند البيزنطيين ، ولعل هذه الآثار اليونانية البيزنطية هى التى احدثت عند المسلمين مقامات الحريرى وابواب جامع المؤيد .

وانت تميز اليونان بالحركة ، وتميز العرب بالسرعة ، وتستنبط من هذه السرعة ظلما كثيرا للعرب ، كما فعل ابن خلدون من قبل ، وليس من شك في ان العرب يشاركون اليونان فى الحركة ، ولكن ليس من شك ايضا فى انك تغلو غلوا شديدا فى وصفهم بالسرعة . انما أسرع العرب فى الخروج من باديتهم ، ولكنهم حين بلغوا الامصار استقروا فيها ، وطال بهم المقام ، فأثروا فى اهلها وتاثروا بهم ، وكانوا فى القرون الوسطي اشبه الامم باليونان فى العصر القديم .

ورأيك فى الموسيقى العربية واليونانية في حاجة الى التصحيح ايضا ، فنحن نعلم من الموسيقى اليونانية شيئا يسيرا غير مضبوط ، ولا نعلم من الموسيقى العربية شيئا ، ولست ادرى الى اى امة او الى اى جيل نستطيع ان نرد هذه الموسيقى ، وهذا الغناء اللذين نتحدث عنهما . ولكن الشىء الذى لا أشك فيه هو ان من العسير جداً ان نردهما الى العرب القدماء . وكل شىء يدل على ان الموسيقى العربية والغناء العربى كما كان يعرفهما العرب ايام الامويين والعباسيين وفي الأندلس كانا متأثرين اشد التأثر بالموسيقى البيزنطية والغناء البيزنطى . فاذا اردت ان تعيبهما فلا تنس ان تعيب اصلهما اليونانى القديم .

واريد الآن ان ادع هذه المناقشات التى تمس امورا جزئية وان اخلص الى جوهر الموضوع الذى تريد ان تعرف رأيي فيه ، وهو : الروح المصرى الذى ينبغى ان يقوم عليه الادب الحديث ما هو ؟ وما العناصر التى تؤلفه ؟ وانا أستاذنك فى أن أكون يسيرا سهلا ، لا متعمقا ولا متكلفا ، ولا باحثا عن الظهر فى الساعة الرابعة عشرة ـ كما يقول الفرنسيون ـ فالامر أيسر جدا من هذا كله ، عناصر ثلاثة تكون منها الروح الادبى المصرى ، منذ استعربت مصر ، اولها العنصر المصرى الخالص الذى ورثناه عن المصريين القدماء على اتصال الازمان بهم ، وعلى تأثرهم بالمؤثرات المختلفة التى خضعت لها حياتهم ، والذى نستمده دائما من ارض مصر

وسمائها، ومن نيل مصر وصحرائها. وهذا العنصر موجود دائما في الادب المصري الخالص، قد حاولت تشخيصه بعض الشيء في اول هذا الفصل، فيه شيء من التصوف، وفيه شيء من الحزن، وفيه شيء من السماحة، وفيه شيء من السخرية. والعنصر الآخر هو العنصر العربي الذي يأتينا من اللغة ومن الدين ومن الحضارة، والذي مهما نفعل فلن نستطيع ان نخلص منه، ولا ان نضعفه ولا أن نخفف تأثيره في حياتنا، لانه قد امتزج بهذه الحياة امتزاجاً مكونا لها مقوماً لشخصيتها. فكل افساد له افساد لهذه الحياة، ومحو لهذه الشخصية، ولا تقل انه عنصر اجنبي، فليس اجنبيا هذا العنصر الذي تمصر منذ قرون وقرون، وتأثر بكل المؤثرات التي تتأثر بها الاشياء في مصر من خصائص الاقليم المصري، فليست اللغة العربية فينا لغة اجنبية، وانما هي لغتنا وهي اقرب الينا الف مرة ومرة من لغة المصريين القدماء. وقل مثل ذلك في الدين، وقل مثله في الادب.

اما العنصر الثالث. فهو هذا العنصر الاجنبي الذي اثر في الحياة المصرية دائما، والذي سيؤثر فيها دائما، والذي لاسبيل لمصر الى ان تخلص منه، ولا خير لها في ان تخلص منه، لان طبيعتها الجغرافية تقتضيه، وهو هذا الذي ياتيها من اتصالها بالامم المتحضرة في الشرق والغرب. جاءها من اليونان والرومان واليهود والفينيقيين في العصر القديم، وجاءها من العرب والترك والفرنجة في القرون الوسطى، ويجيئها من اوربا وامريكا في العصر الحديث. فخذ الآن اي اثر أدبي مصري فحلله الى عناصره التي يتكون منها، فستجد فيه هذه العناصر الثلاثة دائما. ولكنك ستجد بعضها اقوى من بعض بمقدار حظ المؤلف او المنشيء من هذه الثقافات الثلاث المختلفة. بعض هذه الآثار يغلب فيه العنصر العربي، وبعضها يغلب فيه العنصر الاوربي، وقليل جدا منها يظهر فيه العنصر المصري القديم. فاذا لم يكن بد من أن أصور المثل الأعلى لروحنا المصري في أدبنا الحديث، فاني أحب ان يقوم التعليم المصري على شيء واضح من الملاءمة بين هذه العناصر الثلاثة فتشتد عنايته جدا بالتاريخ المصري، والفن المصري، والادب المصري على اختلاف العصور. وتشتد عنايته جدا بالادب العربي، والتاريخ العربي، والدين الاسلامي. ثم تشتد عنايته بالثقافة الحديثة واخوف ما اخافه على هذا الروح المصري شيئان: احدهما ان تلوينا الثقافة الاوربية عن الثقافة المصرية والعربية، وكل شيء يغرينا بها ويغريها بنا فهي ضرورة من ضرورات الحياة، فمن الحق علينا ألا نضيع حظنا منها، ولكن من الحق علينا الا نفنى انفسنا فيها. الثاني أن نؤثر ثقافة اوربية على ثقافة اوربية فنؤثر الثقافة الانجليزية - كما يريد قوم وكما تريد سياسة الدولة - او نؤثر الثقافة اللاتينية - كما يريد قوم آخرون، وكما كانت تريد سياسة الدولة من قبل - هذا خطر لانه يجعل الروح المصري الناشيء وجها لوجه أمام روح اوربي اقوى منه واشد باسا. فيوشك ان يخضع له ويفنى فيه، فلو قد فتحنا أبوابنا للثقافات الاجنبية على اختلافها، لانتفعنا بها كلها ولأضعف بعضها بعضا، وحال بعضها دون بعض ان يفنينا او يسيطر علينا. لذلك تمنيت وما زلت أتمنى لو لم تفرض على مصر لغة بعينها من لغات الاوربيين، بل جعلت اللغات الحية الراقية كلها مباحة للطلاب يأخذون منها مايشاءون.

هذا الروح المصري الذي يتكون من هذه العناصر الثلاثة، هو الذي نشهده الآن عندك وعند كثير من أمثالك المثقفين، وهو الذي نجد في نشره واذاعته بين المصريين جميعا، وهو الذي سيطبع أدبنا المصري الحديث بطابعه القوي سواء اردنا أم لم نرد. فشخصيتنا المصرية العربية اقوى بحمد الله من أن تمحى او تزول، والحضارة الأوربية اقوى والزم من أن نعرض عنها، أو نقصر في الأخذ بحظنا منها. ستسألني: ولكن الأديب؛ من أين يستمد خواطره، ويستلهم وحيه؟ فاجيبك: من هذه العناصر كلها، او من أي هذه العناصر شاء، سيكون منا الأديب الذي يستلهم العنصر المصري القديم؛ اليس بين الفرنسيين من يستلهم اليونان؟ وسيكون منا الاديب الذي يستلهم العنصر العربي؛ اليس من الفرنسيين من يستلهم الرومان؟ وسيكون منا من يستلهم العنصر الاوربي، اليس من الفرنسيين من يستلهم السكسونيين؟ بل من يستلهم الشرق الاقصى، او الشرق الاوسط، او الشرق القريب، بلى. والامر كذلك عند الانجليز وعند الالمان، وعند غيرهم من الامم الحية. فانت ترى أن أمر هذا الروح المصري ايسر من ان يدعو الى الخوف او يضطر الى الحيرة واكبر الظن أن مصدر هذه الحيرة وذلك الخوف انما هو اضطراب سياسة التعليم في مصر وقيامها على غير أساس، وسيرها في غير طريق، ولو قد وضحت هذه السياسة واستقامت منذ زمن بعيد لما تساءلنا الآن عن الروح المصري، ولا عن الادب المصري من أين يستمد الحياة.

أما بعد؛ فقد كنت أريد أن أقتصد وأؤثر الايجاز، ولكن الحديث معك أغراني بالاطالة وحببها الي، وارجو أن لا اكون قد أثقلت عليك ولا على غيرك من القراء، وارجو ان تقبل تحيتي الخالصة؟